



العُصْرُ

العدد ٤ مجلد ١ شعاع الحكمة يجذبنا إليك ديسمبر ١٩٢٧

بشار بن برد

ودلالة شعره على نفسيته

— ١ —

الشعراء ايبين الناس نفوساً وأجلاهم باطناً . ولهذا ترى انهم اكثر أبناء آدم تعرضاً لنقد الناقدين . على انهم بعد من طينة آدم وحواء ، وليسوا باكثر من كل الناس اسفافاً ، ولا أعلى منهم في الآداب مكانة . فهم طبقة خاصة تمتاز بموهبة ما . موهبة فنية لا تخرج في حكمها عن بقية المواهب التي تمتاز بها بقية الطبقات من مجموع الحيوان الناطق . والحقيقة أن نفسية الشعراء نفسية مفضوحة في شعرهم بينة في خطرات نفوسهم ، جليلة واضحة ، بل تكاد تكون ملحوسة ، دون غيرها من نفسيات الناس . ولولا عجز الشاعر عن ضبط هواجس نفسه ، وفقد الارادة على كتمانها والترسل بها شعراً ، لكان أبعد الناس عن صفة الشعرية . فعجزه هذا سر من أسرار قدرته الشعرية ، وضعف ارادته سبب أول من الاسباب التي تسوقه إلى تصوير ما في نفسه ، ظاناً انه انما يعبر عن حقائق العالم وعن نفسيات غيره من الناس بما يصور من خطرات لا يقوم إلا في نفسه وحده .

كنت أسير يوماً مع صديق أديب على شاطئ النيل ذات أصيل وقد فاض
النهر في آخر شهر آب وانعكست على صفحته النحاسية أشعة الشمس الذهبية
فوقف صديقي أمام النهر المتدفق المنساب في جوف الطبيعة النساب الأمل
المريض في نفس أمضها الفراق ، وقد بهت من عظمة ما يرى ، فلما لبث أن أخذ
كتاباً كان معي وكتب على أول صفحة منه .

الله أنت وأنت الله يا نيل مني لشخصك تعظيم وتبجيل
يبدو جمالك ملء النفس قاطبة فيأخذ النفس تكبير وتهليل
ولم يك صاحبي من المشتغلين بصناعة النظم ، ولم أعرف عنه أنه شاعر .
بل هو نائر من كبار النافرين وإن كان في نفسه نزعة إلى الشعر ، فانما هي نزعة
تلوخ ضئيلة بجانب حب البحث والاختبار . ولعله يقرأ اليوم هذا ، ولعله يذكر
هذه المناسبة ، فيستجمع في مخيلته مرأى النيل ومشهد أمواجه المتلاطمة الآخذ
بعضها برقاب بعض ، ولعله يكمل ما بدأ منذ عشر من السنين ، فيخرج قصيدة بليغة
في وصف النهر الفائض ، بل في وصف ما فاضت به نفسه من الصور المتخالطة .

وبعد . فهل رأيت في خطاب ذلك الصديق إلى النيل ، كيف كشف عن نفسه
وكيف جعل النيل في منزلة واحدة مع الله وكيف بدا جمال الطبيعة ملء نفسه ممثلاً في
النيل وفي ذلك الظرف الذي انعكست فيه أشعة الشمس عند الاصيل على صفحة
النهر النحاسية الجميلة ، فأخذ ذلك الجمال على نفس الصديق أطرافها وملأ جوانبها
فلم يترك في نفسه من مكان خال ليسع أية فكرة أو معتقد أو مذهب أو صورة
أخرى ، وأن وحدة الوجود التصوفية لم تترك في العالم من شيء عند شاعرنا
الأديب إلا الله والنيل ، ولا شيء غيرها . وما من ريبة في أن هذه الخطرة التي
فاضت بها نفس الصديق في تلك الآونة قد فضحت سرائر نفسه واظهرتها على
حقيقتها الكامنة دون مظهرها الخارجي فنمت عن أن تلك النفس لوحواطمها عقائد
الوثنية لكانت اثبت فيها من كل ما خلق الفكر من صور الدين فوق هذه الأرض
ولو أنك نظرت معي في ملامح صديقي وما ارتسم على وجهه من مظاهر
الحب الشديد والمطف مشوبان بشيء من الانقباض والحيرة ، لاعتقدت بأن تلك
الحيرة وذلك الانقباض لا يدلان على شيء دلالتهما على تنازع بين التقاليد الوراثة
في النفس إذ تتناحر جادة في سبيل أن تملك كل منها أطراف النفس تحت تأثير

ظرف من الظروف . وكأن الطبيعة ماخطت على وجه ذلك الصديق مسحة من الحزن تراها نامة عن حقيقة نفسه بلا شعر حتى وبلا حديث ، على الرغم مما يلوح في كلامه وحركاته من مظاهر المرح والجدل ، الا لتفصح سر نفسه ، وان أجهد نفسه في اخفائه . وما ان لاح على وجهه في تلك اللحظة التي أخذ يخاطب فيها النيل من شيء ، وما ان زاد على صفاته من صفة الانفعال ممسوس بكآبة شديدة ازدادت معها مسحة ذلك الحزن العميق الذي خطته يد القدرة على حيائه على هذا النسق يدل الشعر دلالة صحيحة على حقيقة نفسية الشاعر . فان الشعر هو الصوت الصارخ الخارج من أعماق النفس ، بل ومن أعماق أغوارها ، ليسبك في اللغة عنواناً حياً على النفسية التي بعثته من قرارة الوجدان الى عالم الخطاب . ومهما يكن من تأثير روح العصر على الشعر والشعراء ، ومهما يكن من أمر حاجات الحياة وتأثيرها في الشاعرية اذ تقلبها في بعض الاحيان الى صناعة للنظم تبدو جليلة واضحة في المديح وغيره من صور الشعر قضاء لحاجات ما تحركت لها الشاعرية ولا فتنت بها النفس ، فان الشاعر لن يفلت من القدر مطلقاً ، ولا بد من أن تعثر في شعره على خطرة أو مقطوعة قصيرة أو مناجاة يرسل بها الى الله أو الى الطبيعة أو الى شيء أو معنى مبهم قد يشعر به ولا يستطيع التعبير عنه ، ماتم في الدنيا عن شيء الا عن دخيلة فطرته وعن نواتها التي التأمت من حولها كل عناصر نفسه .

ان ادل صور الشعر على نفسية الشاعر انما هو شعر الانفعال . الشعر الذي يبعثه انفعال خالص في النفس غير مشوب بشيء من حزم الارادة ولا روادع العقل ، ولا تكلف من ناحية الصناعة . فاذا أردت أن تبحث في مجموعة ما أخرج شاعر من قصيد لتستدل بشيء منه على نفسيته ، فانما يجب عليك أن لا تعتمد التغلغل وراء معانيه الخفية ولا أن تفحص وراء تشبيهاته ، بل يتعين عليك أن تبحث في أي المواضع من شعره بعث انفعاله وتجرد عن ارادته في ضبط معانيه وعري عن عقال عقله ليسير وراء ما يريد أن يخرج من معنى معقود على غرض يريد الوصول اليه . واني لا أتخيل أن هذه القاعدة لا تخطئ اذا أمكن تطبيقها بما يقتضى لذلك من الحيلة والحذر وطول الأناة والصبر على البحث وقوة الملاحظة .

ولو أنك ثابت على اتباع هذه القاعدة ورضت نفسك على التزامها لبان لك أن تطبقها على الشعر الجاهلي أيسر منه في الشعر المخضرم ، وأنها أبعد ما تكون يسراً في التطبيق على الشعر من بعد ذلك . فإن الخلق الجاهلي ما كان يعرف إلا الانفعال لشيء يملك جوانب النفس حتى في أخطر ناحية من نواحي الشعر العربي ناحية المدح والهجاء . أما هذه الناحية فقد فسدت في عصور المدنية كل فساد حتى شوهدت جمال الشعر ، اللهم إلا من ناحية الصناعة والانسجام . فإن المدح والهجاء من قبل ما كان ليفيض بأحدهما خيال شاعر من الشعراء إلا تحت تأثير انفعال يدل دلالة واضحة ، وقد تكون غير ذلك ، لأعلى نفسية الشاعر وحده ، بل على بعض صفات حقيقية يتصف بها الممدوح أو المهجو .

فلما أن ضغطت حاجات المدنية والترف على النفسية الشعرية وحوطتها عوامل الجشع الاجتماعي بمؤثراتها خرجت بمواضع المدح والهجاء عن أن تكون شعراً يدل على واقع ، إلى صناعة يستدرجها الشاعر أكف الأغنياء والأمراء بالحق والباطل . ففسدت صورة من صور الشعر كانت من الممكن أن تظل نبعاً فياضاً بالدرس لمن يريدون أن يكتبوا في أشخاص الذين اشتهروا من العرب في عصور مدنياتهم . وأنت بعد قلب ما كتب الشعراء في أمير أو وزير ، ثم ترجع إلى المدونات التاريخية ، فلا تقع إلا على صورة تختلف تمام الاختلاف عن الصورة التي يطبعها في مخيلتك الشعر المقول فيه . ثم إنك لا تجد المدونات إلا على صورة من النقص لا تزودك بسنادة قوية يمكن الاعتماد عليها في بحث تاريخي أو تحليل نفسي . فإن سطوة أهل الجاه قد حالت دون حرية الأقلام في تقرير الحقائق حتى إنك لتجد أن مدونات التاريخ قلما تتكلم في أشخاص الزمان الذي كتبت فيه إلا محشوة بالمدح شأن الشعر ، ثم تجدها تتكلم في أشخاص زمان سابق بشيء من الاستقلال في الرأي ، ولكن الشك يساورك فيها كل مساورة ، لأنها على الأقل صورته منقولة للكاتب أو الممدوح على السنة من تلقفها من الرواة ، وقد تكون صحيحة ، ولكن من المحتمل أن تكون خطأ وافتراء .

كل هذه الأسباب يجب أن تتجمع في ذهن الكاتب إذا أراد أن يكتب في بشار بن برد ، مستعيناً بدرس شعره على معرفة نفسيته وتحليلها . وأنت تعرف

بشاراً وتعرف عصره . عصر قريب من بدء انقلاب تاريخي عظيم ، لافي تاريخ الاسلام والمدنيه الاسلاميه وحدهما ، بل في تاريخ الدنيا . استتب الامر للعباسيين في بغداد وبدأت موارد الامبراطوبه الاسلاميه العظمى تزود العاصمة الجديدة بكل ما تستطيع من صنوف الترف والانغماس في شهوات ان لم تبلغ في عصر بشار مبلغها في عصر الرشيد أو المأمون مثلاً ، فانها صورة تكفي اذا قستها باخبت صور الفساد الروماني لان تولد في ذهنك فكرة أن المدنيه الاسلاميه اينما حلت وكانت قد حلت معها بزور انحلالها ، وقد نبئت تلك البزور في كثير من أطوار تلك المدنيه ولكنها ظلت دائماً كامنه دفينه في أعماقها ، منقولة عن البادية الى الحاضرة . مرتكزة على أساس من الصفات النفسية ، ما كانت البيداء الاسداً منيعاً حاله دون ظهورها بذلك المظهر الذي تجلى في بغداد في أوائل العصر العباسي وأواسطه ، وانتهى بتغلب شعب جديد كانت السهول مبعاته والجبال والاحراش مثابته .

أنك لا تستطيع أن تتغلغل في حياة بغداد الاجتماعية الا من طريق كتب الأدب . وما ترويه تلك الكتب مشعب الاطراف كثير الوجوه متعدد القصص . على أنه في مجموعها لا يحوط تفكك بشيء ولا يولد في ذهنك من فكرة الا فكرة الاكباب على الملذات والمبالغة فيها والافتتان في حيازتها بكل طريق مستطاع سواء أرضيت به شريعة الآداب أم نفرت منه . ولا أريد أن أذهب بالقارئ بعيداً ولا أن أطوف به في مجاهل كتب الأدب الكثيرة ، فان كتاب ألف ليلة وليلة ماهو الا صورة تكاد تكون صحيحة في فلسفة الحسيات التي تملكك فكرة الناس وأذلت أعناقهم في بغداد في أزهر أيامها بالمدنيه الاسلاميه . بل يكفي ان تطوف معي طوفة بسوق النخاسين في بغداد لتطبع في ذهنك صورة صحيحة من مدنية ذلك العصر ، هي أشبه الاشياء بتلك الصورة التي تصورها لنا صفحات التاريخ عن آخر عهد مرمدينة بومبي قبل نكبتها .

قال كاتب عربي

« ولقد شهدت سوق الجوارى في مدينة بغداد ، وقد أقيمت في الموضع المعروف بسوق النخاسين فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينه والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن من الغانيات اللاتي يعرفن بـ

عليهن من اللباس الفاخر الذي لا غاية بعده ، بما يتخذن من المصائب التي ينظمنها
بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب كلاماً يحلو لأهل الطرب ، فرأيت
على بعض المصائب - « وضع الخلد للهوى عز » ورأيت على بعضها - « من كان
لنا كنهه » - ورأيت في صدر جارية هلالاً مكتوباً عليه

أفلت من حرور الجنان وخلقت فتنة من يراني

: وقرأت في عصابة أخرى

الا بالله قولوا يا رجال أشمس في المصيبة أم هلال .

« وبعض الفواني المترفات كن يتخلصن سرّاً من حيث لا يردن المقام ثم
يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء الى ان يقع سوقهن على أحد من
الناس ومواليهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف
التجار ببضائعهم » .

هذه الصورة على ضؤولتها كبيرة الاذلة على روح ذلك العصر تلك الروح
التي ما كانت تقود خطوات المدينه القائمة فيها الا الى الانحلال والفساد . وهل
هي الا صورة روما في آخر عصور مدينتها حيث كان الرجال يعدون السنين بعدد
النساء اللاتي اتخذنهم عشيقات وحيث كان الابناء لا ينسبون الى آبائهم ، بل الى
أمهاتهم ، فيقال بن فلانة لا ابن فلان !!!

ذلك الجو الذي حوط بشار بن برد ، ما كان ليخرج لنا من الشعر الا
ما وصل اليها عن بشار ، وما كان ليزودنا بشيء من مواد البحث الا بكل ما يمكن
أن يستدل به على عناصر الفساد الذي أخذ يدب في جسم الدولة المباسية في بغداد
منذ أول نشأتها الا قليلا .

وهل تجد في ذلك الجو المعتم الا مفاصد وشهوات ضالة مضلة ، ما كانت
لتؤثر في شيء بقدر تأثيرها في الروابط الاجتماعية التي تكون الاسرة ، وهي
سناد البناء الاجتماعي ، وأول ركيزة في قيام المدينيات ؟

ولعمرك لو أردت أن تبحث في نظام الاسرة اذ ذاك وتمشيت من ثم الى
البحث في اخلاق المرأة التي تريد وما أرادت في كل الازمان المتمدنية الا أن
تستقل برجل تهبه من عواطفها بقدر ما يهبها من عواطفه ، ويخصها من حبه بقدر
ما تخصه من حبها ، ألا ترى معنى بحق أن نظام الاسرة كان بائراً وأن رابطة

المجتمع القائم عليها كانت مفسومة وأن الحياة اذ ذاك كانت عبارة عن نسيج مفكك الاوصال لم ترأب صدوعه آداب للأسرة توورثت في ناحية من نواحي المدنية؟ وهل يمكن أن ترأب صدوع الاجتماع في نظام مدني لم يقم فيه للمرأة من وزن، اللهم الا بمقدار ما ترضى في الرجل من شهوات هي أخط ما أخرجت الطبيعة من فاسد عناصرها في الحياة؟ وهل من المستطاع أن تتكون أسرة متلائمة العواطف متناسقة الآداب وقد تحكمت فيها الاماء اللواتي كن لا يعشن الا متطفلات على شهوات الرجال متضاربة مراميهن، متنافرة مصالحهن، متناثرة حول الشهوة رغباتهن، متضائلة بجانب الرذيلة فضائلهن، مركزة حول البغض والحسد أفكارهن، قريبات من الاثم، بعيدات عن التقوى، هائمات جامحات شاردات، ما من حاجة لهن في الحياة، وما من مطمع في الدنيا، سوى ارضاء أفسد ما انطوت عليه نفس الرجل من الصفات؟ وأنت بعد. هل تجد للرجل من مجال ينمي من صفات الرجولة فيه الا معهده المنزلي؟ فكيف به وهو لا يرى الا صورة الخنوة قائمة من حوله تزكي فيه مواضع الفساد، مقصية به عن مواضع العفة والشرف، نازلة به الى الخضيض، هابطة به الى الدنى والمفاسد، سالبة منه شرة الرجولة، قاتلة فيه صفات الذكورة الصحيحة؟

هذه الصورة تتحيز في ذهني وتظل شديدة الاثر فيه كلما فكرت في عصر بشار بن برد وكلما فكرت في العصر العباسي من ناحيته الاخلاقية. على انك ان فكرت في العصر العباسي من حيث الأدب لوجدت فيه مناقص وكالات شأن كل الاعمال الانسانية. على أن أنقص ما أراه فيه نزعة الادباء الى المنايذة باللقاب والانساب، وجنوحهم الا المفاضلة بين الشعراء أو الكتاب. وهي ظاهرة أقل مافيهما أنها تدل على انصراف عن الأدب الحقيقي على الوجه الاكمل الى أشياء لا تضر ان تركت ولا تفيد اذا ذكرت، بل أنها فوق ذلك من مواضع الضعف في فنون الأدب وفي الصناعات الأدبية.

قال الرواة إن أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول «الاعم صباحا أيها الطلل البالي». وحيث يقول «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل». وفي الاسلام القطامي حيث يقول «إنا محيوك فاسلم أيها الطلل». ومن المسلمين بشار حيث يقول

أبي طلل بالجذع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متبها
وبالقرع آثار بقين وباللوى ملاهى لا يعرفن الا توها

وما اعتقد أن بشاراً والقطامي الا من الناسجين على وتيرة امرىء القيس .
فكلاهما في حسن ابتدائه خاطب الطلول البوالى . وانك لتجد في النواح على
الطلول رنة حزن في النفس عميقة وهى على ما تبعث من الحزن في النفس لا تولد فيها
الا الذكريات ، ذكريات المنازل الخاوية والصور الذهنية الحية بما يتخللها من
الانفعالات الشديدة الاثر . والدليل على أن بشاراً والقطامي قد نسجا على منوال
امرىء القيس أن امتع بيت قاله بشار قل ظل زماناً يجهد نفسه لينظمه على نسق
بيت امرىء القيس المشهور

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى
فقال بشار

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
على أن هذا البيت لا يخلو من نقد فانه أقل من سيوفه ، لأن أسياف جمع
قلة . ويقولون ان بشاراً أغزل الشعراء حيث يقول

أنا والله اشتهى سحر عنيـب لك وأخشى مصارع العشاق

ولو قالوا بانه اجبن المحبين وأحرص العشاق على حياته لكان ذلك به أولى .
على اننى لا أجد في مباحث الأدب من مبحث هو أعق لفضيلة الاقساط في القول
من المفاضلة بين الشعراء أو الموازنة بينهم أو الوساطة فيما اختلفوا فيه من مذاهب
الشعر . فانت تجد أن لكل شاعر من فحول الشعراء صفة قلما يدركه فيها شاعر
غيره ، وأنه نسيج من الشاعرية وحده غير قائم على أساس مستمد من تقليد أو
تشبه بغيره . لان الشاعرية سليقة موروثية في النفس ولن تماثل الشاعريات الا
اذا تماثلت الصفات الموروثة . وهذا أمر بعيد مناله متعذر وقوعه

وانا لا تحوطينا شبهة مطلقاً في أن شاعرنا الذى نتكلم فيه اليوم نسيج من
الشاعرية وحده ، وانه في شاعريته مزيج من الصفات الموروثة لم تنهياً لشاعر غيره
كما أن بقية فحول الشعراء لكل منهم صفات لا يشاركون فيها بشار ولا غيره من
أهل هذا الفن المطبوعين عليه .

على أنه تعترضنا في بحث بشار من ناحية الشاعرية ومن ناحية دلالة شعره

على نفسيته موانع كثيرة . أولها : اننا لا نستطيع أن ندرس حقيقة العصر الذي عاش فيه من ناحية النظام الاجتماعي دراسة تولد في أذهاننا صورة غير الصورة التي وصفناها من قبل ، وانها لصورة آثارها كثيرة الذبوع فيما وصل اليها من شعر بشار . وثانيها : أنه لم يصل اليها من شعر بشار الا تنقاً أو مقطوعات قصيرة ولم يصل اليها من شعره قصيدة كاملة . على انني اعتقد أن ما وصل اليها من شعره كاف لدرس قوة شاعريته والاستدلال بها عن حقيقة نفسه .

ولن أشك بجانب هذا في أن شعر بشار لو وصل اليها كاملاً ، كما وصل اليها شعر المتنبي أو أبي العلاء المعري أو غيرها من الشعراء ، لكان لنا منه مورد كبير في دراسة عصره والاستدلال به على حالات قامت في ذلك العصر . فان ما وصل اليها من آثار بشار الادبية ، على قلتها ، تدلنا دلالة واضحة على أن ذلك الشاعر الكبير كان قد اندمج في جوهر اندماجا تاما وامتزج دمه بعناصر المدنية التي قامت من حوله . فهو صورة من ذلك العصر . صورة أقل مافيه من الدلالة على الروح التي ذاعت فيه انها خارجة من نفس شاعر ملء نفسه الشاعرية ، صورة مفضوحة في الشعر غير موشاة بشيء من صناعة الكلام ولا مغطاة بجهال النثر ولا ببيانياته ولا خطابيته ، ولا محلاة بالصناعات البديعية التي لجأ اليها كتاب ذلك العصر .

وبعد فانت لا تبعد عن روح العصر العباسي بقدر ما تلجأ إلى الصناعات النثرية التي ذانت فيه . فانها لا تعطيك من صور ذلك العصر الا صورة مكذوبة قد تستدل منها على شيء من رقي اللغة أو انحطاطها . وقد تستدل منها على شيء من جمال الاساليب أو فسادها . ولكنك لا تلجأ اليها للاستدلال بها على روح ذلك العصر الحقيقية ، الا وتكون قد لجأت إلى أوهن ناحية من نواحي التنقيب في عصر هو أبعد العصور عن تزويدك بمراجع يصح أن تتخذ دعاماً للبحث العلمي الادبي بحثاً يرضى الحق والضمير